

والبدوي والقروي والمدي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة  
المرح ، وكثرة اللام ، وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فأنما الشعر صناعة وضرب  
من النسيج وجنس من التصوير (١) :

وظن بعض الباحثين أنه يميل إلى اللفظ كل الليل ، وأنه لا يرى للمعنى كبير  
أهمية ، والواقع أنه عني باللفظ وأعطاه نصيبه من الاهتمام ، وشغل بال المعنى  
والتصوير الأدبي الذي يقول عنه : «لأنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من  
التصوير ، وهذه نظريته التي شرحها عبد القاهر الجرجاني وسماها «نظرية  
النظم» ، فالبحاظ أهم بالاتقان والمعاني والتصوير مع أنه يرى أن بعضهم لا يخل  
إلا بالمعنى وحده كأبي عمرو الشيباني الذي يرى أن المعنى متى كان راتماً حسناً  
ظل كذلك في أية عبارة وضع فاليبتان :

لأنحسب<sup>١</sup> الموت موت البلى      لأنما الموت<sup>٢</sup> سؤال<sup>٣</sup> الرجال  
كلامها مسوت<sup>٤</sup> ولكن<sup>٥</sup>      ذا أفطع<sup>٦</sup> من ذلك لل<sup>٧</sup> السؤال

استحسنهما أبو عمرو على حين ليست عليهما مسحة من جمال سوى الوزن :  
وعابه الجاحظ ورأى أنه مسرف في تشبيههما ، وقال : «وأنأ رأيت أبا عمرو  
الشيباني وقد بلغ من استجاده لذين الشيبين ونحن في المسجد يوم الجمعة أن كلّف  
رجلاً حتى أحضره دواة وفرطاساً حتى كتبهما له ، وأنا أزعم أن صاحب هذين  
الشيبين لا يقول شعراً أبداً ، ولولا أن أدخل في الحكم بعض لفظك  
لزعمت أن ابته لا يقول شعراً أبداً» (٢) .

لقد اعتم الجاحظ باللفظ ولكنه لم يهمل المعنى ، ولذلك ليس صحيحاً ماذهب  
إليه بعضهم وهو أن الجاحظ كرس جهوده لخدمة اللفظ ، ولاجله خاضع عبد  
القاهر الجرجاني شعار هذا البحث : ويرى الدكتور محمد منتور أن كل آراء معبد  
القاهر تنحصر في مسألتين :

(١) المبرون ج ٣ ص ١٢١ .

(٢) المبرون ج ٣ ص ١٢١ .

الأولى : التكرار ما رآه الجاحظ من أهمية فصاحة الالفاظ باعتبار تلك الفصاحة صفة في اللفظ ذاته، ثم لورته على مذنب أبي هلال العسكري الذي يرد جودة الكلام إلى صفات لفظية تلف عند الشكل.

الثانية : تعلقه جودة الكلام بخصائص في النظم (١).

وعبارة الجاحظ وقائلا للشر صناعة وضرب من السج وجنس من التصوير، وما نقله عبد القاهر من اهتمامه بالصياغة والصناعة، غير ما يفند هذا الرأي، لأن عبد القاهر سار على عطاء الجاحظ ونقل مصطلحه في التصوير وقال : وليس الشبارة عن ذلك بالصورة شيئا نحن ابتدعناه فينكره منكر بل هو مستعمل مشهور في كلام العرب وبكتيك قول الجاحظ وإنما للشر صناعة وضرب من التصوير (٢) : فالجاحظ من أصحاب الصياغة، ولذلك تسقط عنه نعمة الاهتمام بالشكبة والالفاظ، وإن كان كثير الاعتناء باللفظ واختيار ما يؤدي المعنى أداء حسنا، وهذه مهمة الأديب الذي يقدر قيمة الكلام ويبدل في سبيله أعظم الجهود، وقد كان الجاحظ ادبياً كبيراً وعالماً تقديراً، فمعنى الالفاظ كما عني بالمعاني وكان له الفضل في تصوير نظم الكلام.

ابن قتيبة :

وتحدث ابن قتيبة ( - ٢٧٦هـ ) عن الالفاظ، وذكر ان الشعر أربعة أصرب :

١ - ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه ، كقول القائل في بعض بني أمية (٣) :  
في كفتيه عيرون ويحبه عريق من كفتي أروع في عرنيته شمس  
يغلفني حياه ويقتضى من عهابه فما يكلم إلا حسن يشتم  
وكقول أوس بن حجر :

(١) ينظر في الميزان الجديد ص ١٢٩ .

(٢) دلائل الأسماء ص ٣٨٩ .

(٣) كما في الشعر والشعراء، وفي الغاشق للبريد الكاشي من أبيات يمدح بها عبد الله بن عبد الملك بن مروان. والبريدان في ديوان المرزوق ج ٢ ص ٢٧٨ (طبعة مكتبة صادر) .

ومما في مدح زين العابدين رضي الله عنه .

أيتها النفس اجلسي جزها إن الذي يحطرين قد وقعا  
٢ - وضرب منه حسن لفظه وحلا فإذا آت تشته تجد هناك فائدة في  
المعنى كقول القائل :

ولما قضيتا من منى كل حاجة وسبح بالاركان من هو ماسح  
وشدت على حذاب المهاري رحالنا ولم ينظر القادي الذي هو رابع  
اخلتنا بأطراف الاحاديث بيننا وسالت بأعناق الطي الاياطع  
يقول ابن قتيبة : وهذه الالفاظ كما ترى أحسن شيء من مخارج ومطالع ومقاطع ، وإن  
نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدت : ولما قطعنا أيام منى واستظنا الاركان وعالينا  
ابنا الالقاء ، ومضى الناس لا ينتظر القادي الرابع ابتدأنا في الحديث وسارت  
الطي في الاياطع (١).

ولعمرو قول الملوط :

إن الذين غدوا بلك غادروا وكسلاً بعيشك لا يزال مبيتنا  
لخضن من عبراتهم وقلن لي : ماذا لقيت من الهوى ولقيتسا (٢)

٣ - وضرب منه جاد معناه وقصرت الفاظه عنه كقول لبيد بن ربيعة :

ما عاتب العروة الكريم كفضه والبره يصلحه المجلس الصالح  
٤ - وضرب منه تأثر معناه وتأثر لفظه ، كقول الاعشى في امرأة :

وفوها كالفحسي غذاه دائم الهطسل

كما شيبها بسراج بسا رد من عمل النحل  
ولم يشر ابن قتيبة إلى لفظة والنصاحة في كتابه الشعر والشعراء ولكنه استعمل  
كلمة الالفاظ ، ويرى أن المحدث ليس له أن يتبع المتقدم في استعمال وحشي  
الكلام ككثير من أبنية ميبويه ، ولا أن يسلك فيما يقول الأساليب التي لا تصح

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ٦٦ وجمعة الشعر الفرنسي غير هذا الرأي هو يراها  
من أهدج الشعر وأحده وقد حمله تحليلاً جيداً. (ينظر دلائل الإعجاز ص ٥٨) .  
(٢) البيهقي في ديوان حرير ص ٥٧٨ ، وهذا من تصبئة في معناه الاعطل.

في الوزن ولا تحلو في الاسماع . يقول : «وهذا يكثر ، وفيما ذكرت منه ما ذلك على ما أردت من اختيارك أحسن الروي وأسهل الالتقاط وأبعثها من التعقيد والاستكراه والقربها من أفعال العوام . وكذلك اختار لخطيب إذا عطف والكاتب إذا كتب فإنه يقال : وأسير الشعر والكلام المطمع يراد الذي يقطع في مثله من سمعه وهو مكان الشجر من يد المتناول» (١).

وفي كتابه «أدب الكاتب» حديث عن الالتقاط والأينية ، ولكنه لا يسميها «فصاحته» وإنما هي قواعد يستعين بها الكاتب . وعقد في كتابه «عيون الاختيار» باباً سماه «كتاب العلم والبيان» تحدث فيه عن الأعراب والنحن والشاذق والغريب والبيان والألفاظ التي تقع في كتب الأمان واليهود والخطب . وهو في هذه الأبواب والنصوص ليس كالجاحظ الذي أرسى كثيراً من قواعد الفصاحة ووضع أمثلتها التي تزود في كتب البلاغة والتقد.

الميرد :

وليس فيما كتب الميرد ( - ٨٢٨٥ ) إشارة إلى الفصاحة وإن كان يفضل أن تكون الالتقاط جزءاً (٢).

لعلي :

ولا فيما كتب أبو العباس لعلي ( - ٨٢٩١ ) الذي أشار إلى جزالة الالتقاط (٣) .

ابن المعتز :

ولا فيما ألف ابن المعتز ( - ٨٢٩٦ ) صاحب كتاب البديع .

قدامة :

وتحدثت قدامة بن جعفر ( - ٨٣٣٧ ) عن نعت اللفظ ، وقال ينبغي أن يكون سهلاً متخرج الحروف من مواضعها ، عليه رونق الفصاحة مع الخلو من

(١) شعر والتمرد ج ١ ص ١٠٢ .

(٢) الكلل ج ١ ص ١٢ .

(٣) قواعد شعر ص ٥٩ .

لشاشة (١): وذكر عيوب اللفظ وهي :

- ١- أن يكون ملحونا وجاريا على غير سبيل الأعراب واللفظ.
- ٢- وأن يركب للشاعر منه ما ليس يستعمل إلا في القترط.
- ٣- ولا يتكلم به إلا شاذاً، وذلك هو الوحشي الذي مدح عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - زهيراً بمجاليته له وتكبه إياه فقال : لا يبع حوشي الكلام.
- ٤- ومن عيوب اللفظ المماثلة، وهي التي وصف عمر بن الخطاب زهيراً بمجاليته لما قال : «وكان لا يعاقل بين الكلام، وهي ليست مداخلة الشيء في الشيء لأنه حال أن ينكر مداخلة بعض الكلام فيما يشبهه من بعض أو فيما كان من جنسه ، وإنما يكون الإنكار فيما يدخل بعضه فيما ليس من جنسه وما هو غير لائق به (٢) :

ابن وهب :

وفي كتاب البرهان في وجوه البيان (٣) لأبي الحسين اسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب اشارات إلى جزالة اللفظ وسخافته وركاكته : ولم يحدد معاني هذه المصطلحات واكتفى بالتمثيل وقال : «وأما جزالة اللفظ فكقولُه :  
وال مدوك يا ابن عمِّ محمد رعدان : ضوء الشمس والاضلامُ  
فإذا تبه رُحمتُه وإذا غسفا سلَّت عليه سيوفك الأحلامُ  
وأما سخافة اللفظ وركاكته فنقل قول الآخر :

يا عتب سبقتي أما لك ديسن حتى متى قلبسي لذبك رهيسن  
فأنا لصيِّور لكل ما حملتني وأنا الشقي القاس المسكين (٤)

(١) نقد الشعر ص ٢٦.

(٢) نقد الشعر ص ٢٠١-١٩٦.

(٣) هو النص الكامل للكتاب المطبوع باسم ولقد نشره التسويب إلى قدامة بن جعفر .

(٤) البرهان في وجوه البيان ص ١٧٧.

وقال عن التصحيح : «وأما التصحيح من الكلام، فهو ما والحق لغة العرب ولم يخرج عما عليه أهل الأدب، والتصحيح ذلك وضع النحو، ولجمعه وضعت الكتب في اللغة، وذكر المستعمل منها والشاذ وللهمل: وحق من ينشأ في العرب أن يستعمل الاقتداء بلغتهم، ولا يخرج عن جملة القائلهم، ولا يتبع من نفسه بمخالفتهم فيخطئوه ويحتوه» (١).

وليس في هذه الأشارات ما يوضح رأي صاحب البرهان في القصاحة كما عرفنا لتجاسد ومعاصروه.

#### المسكوي :

وذكر أبو هلال المسكوي ( - ٨٣٩٥ ) رأيين في القصاحة :  
الأول : أن القصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلفت اصطلاحاً لأن كل واحد منهما هو الآياتة عن المعنى والاظهار له. يقول : «فما القصاحة فقد قال قوم : أنها من قومهم : أفصح فلان عما في نفسه إذا أظهره، وللشاهد على أنها هي الاظهار قول العرب : أفصح الصبح إذا أضاء: وأفصح المين إذا تجلعت عنه رغوته فظهر، وفصح أيضاً. وأفصح الأعجمي إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح وبين، وفصح لسان إذا عير عما في نفسه وأظهره على جهة المصواب دون الخفاء: وإذا كان الأمر على هذا فالقصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلفت اصطلاحاً» (٢).

الثاني : انهما مختلفان، وذلك لأن القصاحة تمام آية البيان فهي مقصورة على القفظ، لأن الآلة تتلق باللفظ دون المعنى، والبلاغة تمام هي إنهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى. يقول : «وقال بعض علمائنا : القصاحة تمام آية البيان، فلهذا لا يجوز أن يسمى الله تعالى فصيحاً إذ كانت القصاحة تتضمن الآلة، ولا يجوز على الله تعالى الوصف بالآلة ويوصف كلامه بالقصاحة لما يتضمن من تمام البيان»

(١) البرهان ص ٢٥٢.

(٢) كتاب الصالحين ص ٧.

والدليل على ذلك أن الالتهام واللتصام لا يسببان فصيحين لتقصان كنهما عن ألقمة الحروف.

وقيل : «زباد الاججم» لتقصان آلة نطقه عن ألقمة الحروف ، وكان يعبر عن «الحمار» بالمعاز ، فهو أصجم وشره فصيح لتتام بيانه (1).

ووضَّح الأمر بقوله : «ومن الدليل على أن الفصاحة تتضمن القنط والبلاغة تتناول المعنى ، أن اللفاء يسمى فصيحاً ولا يسمى بليغاً إذ هو مقم الحروف وليس له قصد إلى المعنى الذي يؤديه : وقد يجوز مع هذا أن يسمى الكلام الواحد فصيحاً بليغاً إذا كان واضح المعنى ، سهل اللفظ ، جيد السبك ، غير مستكره فيج ولا متكلف وخم ، ولا يمنعه من أحد الاسمين شيء لما فيه من إضاح المعنى وتقويم الحروف» (2) . وهذا هو رأيه ، أما الرأي الأول فقد عرضة ، لأنّ بعضهم يذهب إلى ذلك : وعند فصلا في تمييز الكلام تحدث فيه عن صفات الالفاظ الحسنة ، وانتهى إلى أنّ الكلام إذا جمع العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة مع السلاسة والتصاحة ، واشتمل على الرونق والطلاوة ، وسلم من الخيف في التأليف ، وبعد عن سماحة التركيب ، وورد على القهقريه - قَبْلَهُ ولم يردّه ، وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجسه ، وانفس قبل العفيف وتنبو عن اللطيف (3).

وأعلى الالفاظ أهمية كبيرة ، لأنه ليس الشأن في إيراد العافي ، لأن المعاني يعرفها العرف والعجمي والقروي والبيدي ، وإنما هو في جودة القنط وصفاته ، وحسنه وبهائه ، وتزاعته وتفاكه ، وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب ؛ وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون على هذه الأوصاف ، وهو ما أشار إليه الجاحظ من قبل ، ولكنه جعل التصوير أساس البيان :

(1) كتاب الصائتين ص ٧.

(2) كتاب الصائتين ص ٨.

(3) كتاب الصائتين ص ٥٧.

ابن سنان :

وعند ابن سنان الخفاجي ( - ٨٤٦٦ ) كتابه امر القضاة فصولا إضافية تحدث فيها عن صفات الحروف ومجاورتها . فصاحة اللفظة المتردة والالفاظ المؤلفة :

والقضاة عنده - : «التلهور والبيان» ، (١) والفرق بينها وبين البلاغة وأن فصاحة مقصورة على وصف الالفاظ والبلاغة لا تكون الا وصفاً للالفاظ مع العالي . لا يقال في كلمة واحدة لانها على معنى يفضل عن مثلها بلغة وان قيل فيها فصحة ، وكل كلام بليغ فصيح . وليس كل فصيح بليغ ، (٢) .

ولكي تكون اللفظة الواحدة فصيحة ينبغي ان تتوفر فيها بعض الشروط ، قال وان القضاة على ما قلنا لمعت للالفاظ اذا وجدت على شروط عدة ، وفي تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الالفاظ وبحسب الوجود منها تأخذ القسط من الوصف ويوجد أصداءه تستحق الاطراح والذم . وتلك الشروط تنقسم قسمين فالاول منها : يوجد في اللفظة الواحدة على اتزانها من غير أن ينقسم اليها شيء من الالفاظ وتؤلف معه .

والقسم الثاني : يوجد في الالفاظ المنظومة بعضها مع بعض ، (٣) .  
لما الذي يوجد في اللفظة الواحدة كسماوية أشياء :

الاول : أن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المطارج ، وعلّة ذلك أن الحروف التي هي اصوات تجرى من السمع مجرى الالوان من البصر ، ولاشك في أن الالوان للثابتة اذا جمعت كانت في النظر أحسن من الالوان المتقاربة ، ولهذا كان البياض مع السواد احسن منه مع الصفرة .

(١) امر القضاة ص ٥٩

(٢) امر القضاة ص ٦٠

(٣) امر القضاة ص ٦٥



ومثال التأليف من الحروف المتباعدة كثير جليّ كلام العرب عليه ، فلما تأليف الحروف المتباعدة لعميل والمصنوع ، وقد روي أن الخليل بن أحمد القرامدي قال : « سمعنا كلمة شتاء هي المصنوع ، والكرنا تأليفها » . وقيل : ان امرأيا سئل عن تأليفه فقال : تركتها ترعى المصنوع ، (١) . وقال ابن سنان : « والحروف الحلق مزية في التصحيف اذا كان التأليف منها فقط ، وأنت تترك هذا وتستطبعه كما يفتح عندك بعض الامزجة من الالوان وبعض لثمن من الاصوات » (٢) .  
الثاني : ان يكون لتأليف اللفظة في السمع حسن ومزية على غيرها وان تساوي في التأليف من الحروف المتباعدة كما نجد لبعض لثمن والالوان حسنا يتصور في النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره من جنسه . ومثاله في الحروف « ع. ذ. ب » فان السامع يجد لتقولهم « العذيب » - اسم موضع - و « حذيب » - اسم امرأة - و « عذب وعذاب » و « عذب » و « عذبات » ، مالا يجده فيما يقارب هذه الالفاظ في التأليف . وليس سبب ذلك بعد الحروف في الخارج لفظ ولكنه تأليف مخصوص مع الجهد ، ولو قدمت المثال أو الباء لم نجد الحسن على الصفة الاولى في تقديم العين على المثال لتعريف من التأليف في لثمن يفسده التقديم والتأخير . وليس يخفى على أحد من السامعين ان تسمية للثمن غصنا أو فنتاً أحسن من تسميته عسلوجا ، وان أخصان الثمان أحسن من صالح الشوحط (٣) ، ومن الكلمات اللطيفة الجميلة « قفاوح » وقد استعملها النبي فقال :

إذا سارت الإحداج فوق ثباته تفارح منك اللانيسات ورقته (٤)  
وهي في غاية من الحسن ، وقيل : ان النبي أول من لفظ بها على هذا المثال ، ومثال ما يكره قول النبي :

(١) سر التصاحف ص ٥٧ .

(٢) سر التصاحف ص ٦٧ .

(٣) الشوحط : شجر ينطق منه النسي .

(٤) الزند : العود ، لو الأس ، أو شجر طيب الرائحة .

مبارك الاسم الحسب القالب كريم الجرشي شريف النسب (١)  
فأنت تجد في الجرشي، تأليفاً يكرهه السمع وينبو عنه ، وأن كلمة «النسب» من  
هذه اللفظة الخفية ؟

الثالث : أن تكون غير متوعدة وحشية كقول أبي تمام :

لقد طلعت في وجه مصر بوجهه بلا طائر سمد ولا طائر كهليل  
فان وكهلاء هنا من ذيب اللفظ ، وروى أن الاصمعي لم يعرف هذه الكلمة وإنما  
ليست موجودة إلا في شعر بعض الهذليين وهو قوله :

فلو أن سلمى جازره أو أجازره رباح بن سعد رده طائر كسهل  
وقيل : إن الكهل الضخم ، وهي لفظة ليست قبيحة التاليف لكنها وحشية  
غريبة لا يعرفها مثل الاصمعي ولهذا اعتمد الخدائق من الشعراء على اعتبار اسمه  
النازل والنساء في القزل وتجنبوا مالا يحسن لفظه ، وعابوا على جرير قوله :

وتقول بنوزع قد جبت على العصا هالاً حزلت بغيرنا بالهوسوع  
وذكروا أن الوليد بن عبد الملك قال له : أسدت شركك ؛ ويزوع :

وقد قال ابن سنان : وأنا أكره من قول كثير بن عبد الرحمن صاحب عزة :  
وما روضة بالخزون طيبة ترى يمجج لئدي جشاشها وعسارها  
ذكر البلجاش ، لأنه اسم غير مختار ، ولو أمكنه ذكر غيره كان عتدي أبني وأوفق ؛  
ولا أحب أيضاً تسمية أبي تمام صاحبه - علاقة - ونداءه بالترخيم في قوله :  
قف بالظلول الدارسات علاقا أضحت حبال قطينين رثلا  
وإن كان الروي قائده إلى ذلك ، فليت شعري من حنط عليه القواني واقده به على  
لثام دون غيرها من الحروفه (٢).

(١) كريم الجرشي : كريم النفس.

(٢) سر القصيدة ص ٧٦.

الرايع : أن تكون الكلمة غير سالفة علمية ، ومثال العلمية قول أبي تمام :  
جليت وللموت مهد حُرٌّ صفحته وقد تَمَرَّعَتْ في أفعاله الأجلُ  
فإن الـفـرع مشتق من أسم فرعون وهو من ألفاظ العلمية ، وعادتهم أن يقولوا :  
وفرع من فلان ، إذا وصفوه بالخيرية .

ومنه قول أبي نصر عبد العزيز بن نائلة :

أقسام قوام اللين زرع لسانه وأنضج كسي البحر وهو طير  
لفظة «قير» عامية مبتدلة .

ومنه قول أبي تمام :

قد قلت لمالِج في صدءه أعطف على عبيدك بالقابري  
فإن «قابري» من ألفاظ عوام النساء .

ومن ذلك لفظة «أوجنتاه» في قول ابن نائلة :

فقد رفعت أبصارها كسل بللة من الشوق حتى أوجنتها الاحواع  
وللفظة «الجورب» في قول المتنبي :

تسترق الكف قوديه ومنكبه وتكتفي منه ربح الجورب الخلق  
العالمس : أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة . ويلاحظ

في هذا القسم ما ينكره أهل اللغة ويردّه علماء النحو من التصرف الفاسد في الكلمة ، وقد  
يكون ذلك لاجل أن اللفظة بعينها غير عربية كما أنكروا على أبي التيبس قوله :

وجتاج مفصوص تحيك ريشه ريب الزمان تحيك للقراض  
وقالوا : ليس «القراض» من كلام العرب ، ولم يسمع عنهم إلا «شقى» .

وقد تكون الكلمة عربية إلا أنها قد عُرِّبَت عن غير ما وضعت له في عرف اللغة ،  
كما قال البحري :

يشق عليه الريح كل عشيبة جيوب الغمام بين بكر وأيم  
فوضع «الأيام» مكان «التيب» وليس الأمر كذلك ، ليس الأيتم التييب في

كلام العرب ، إنما «الأيام» التي لازوج لها يكثرأ كانت أو ثيبا :

ومن ذلك قول البحرى:

شَرَطِي الأَصَافَ إِنْ قَبِلَ اشْتَرَطَ      وَصَدِيقِي مَنْ إِنْ صَاحِي قَسَطَا  
وَأَرَادَ بِوَقْطِهِ عَدْلًا ، لِأَنَّ الأَمْرَ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ الأَمْرُ كَذَلِكَ ، وَإِنَّمَا يُقَالُ وَأَنْطَهَ  
إِذَا عَدَلَ وَوَقَطَهُ إِذَا جَارَ ، وَمِنَ قَوْلِهِ تَعَالَى : «وَأَمَّا النَّاسِرُطُونَ فَكَتَبُوا لِحَبِيبِهِمْ  
حَطَبًا» (١) .

وقد يكون على جهة الخذف من الكلمة كقولك رؤية بين العجاج:  
قَوَائِمًا مَكَّةَ مِنْ وَرَقِ الحَمَامِ

يريد الحمام .

وقد يكون على وجه الزيادة في الكلمة مثل أن تشيع الحركة فيها فتصير حرفًا ،  
كما قال الشاعر .

وَأَسْتَعِجِلُ التَّوَابَةَ حِينَ تَسْرُسِي      وَعَصْنُ عَيْبِ السَّرْجَالِ بِمَسْرَاجِ  
أَي : بِمَسْرَحِ .

وقد يكون إيراد الكلمة على الوجه للثاق للثليل ، كلفظة «باعت» التي جاءت  
ردية شاذة في قول البحرى .

متحيزين فبإساعت مصحجب      ما يرى أو ناظر متسائل  
والعربي المتسعل وبُهِتَ الرجل يُبْهِتُ فهو مبهور .

ويدخل في هذا القسم ما يسي الضرورة الشعرية من اظهار التضعيف ، أو مد  
المقصود ، أو قصر المدود ، أو تأنيث للذكر على بعض التأويل ، أو صرف مالا  
ينصرف وغير ذلك .

السادس: أن لا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر يكره ذكره ، فإذا أوردت وهي  
غير مقصود بها ذلك المعنى تجت وتان كملت فيها الصفات ، كقول الشريف الرضي:  
أَعَزُّ عَلَيَّ بِأَنَّ لِرَأْسِكَ وَوَقَدْ حَسَلَتْ      مِنْ جَانِبِكَ مَقَاعِدُ العُصَاوِدِ  
فَأَيُّرَادُ «مَقَاعِدُ» فِي هَذَا الِيتِ صَحِيحٌ ، لِأَنَّهُ مَوَاقِفٌ لَمْ يَكْرَهُ ذِكْرَهُ فِي مِثْلِ هَذَا

(١) العين ١٥ .

الثان، لاسيما اضائه إلى من يحتمل الضائه فيهم وهم «المراد»، ولو انفرد كان الأمر سهلا قاما اضائه إلى ما ذكره قلبها لوح لاختفاء به.

السابع: أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف فلها متى زادت على الامة المعتادة المروقة فبحت وخرجت عن وجه من وجوه التصاحف: ومن ذلك قول أبي نصر بن تباته:

فإياكم أن تكشفوا عن رؤوسكم      ألا إن مفاتيحهن اللواتب  
فمفاتيحهن كلمة غير مرشبة لطولها.  
ومنه قول أبي تمام:

فلا في سجان انخسالي      بعسما      كانت مرس من حيرة ونكسالي  
سجنت وتبها على امتساجها      ماحولها من تفسرة وجسالي  
قوله وامتساجها، ردى لكثرة الحروف وخروج الكلمة بذلك عن المعتاد في الالفاظ إلى الشاذ النادر.

ومنه قول المتنبي:

إن الكسريم بلا كرام منهم      مثل القلوب بلا سويداواتها (1)  
ف «سويداواتها» كلمة طويلة جدا.

الثامن: أن تكون الكلمة مصفرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو ما يجري مجرى ذلك، فلها تحسن به: ومن ذلك قول عمر بن أبي ربيعة:  
وغاب قُمير كنت أرجو طلوعه      وروح رحبان ولوم سر  
وهذا تصغير مختار في موضعه، فأما الاسماء التي لم ينطق بها إلا مصفرة كالتجيين وللربا قلبس للتصغير فيهما حسن بالذكر، لانه غير مقصود فيما ما ذهب إليه ابن سنان: ومعظم هذه الشروط تدخل في فصاحة الالفاظ الموزنة، والاختلال بها قد يؤدي إلى زيادة الفصح والتشاعر في الكلام، لانه حين تكون الالفاظ مجتمعة محتاج إلى دقة

(1) سويدا قلب : حبه، وجدها سويداوات.

في التركيب واختيار اللطيف منها . يقول ابن سنان متحدثا عن الشرط الاول :  
وأن الاول منها أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباينة المخارج ، وهذا  
بمعنى في التأليف ، ويبيانه أن يجب التأليف بتركيب الحروف المتغايرة في تأليف الكلام  
كما أمرناه بتجنب ذلك في اللفظة الواحدة ، بل هذا في التأليف أجمع ، وذلك ان  
اللفظة للفرقة لا يستمر فيها من تكرار الحرف الواحد أو تقارب الحرف معلما  
يستمر للكلام المؤلف إذا طال والنسب (١) .

ومما فتح قول أبي تمام :

قالجد لا يرضى بان ترضى بأن يرضى للؤمل منك الا بالرضى  
ومنه قول الآخر :

وقبر حروب بمكان تقسر وليس قرب قبر حروب قبر  
ومنه قول اللطبي :

وسعدني في شمرة بعد شمرة سبوح لها منها عليها شواهد  
وأما الثاني من شروط اللفظة للفرقة فيكون في التأليف اذا ترادفت الكلمات  
المختارة فيوجد الحسن فيها أكثر وتزيد طلالته على مالا يجمع من تلك الكلمات  
الا القليل ، وهذا يرجع الى اللفظة بالتقاردها وليس لتأليف فيه الا ما أثره لتواتر  
والتقاريف .

وكذلك الثالث والرابع من الأقسام لاعتق لتأليف بهما ، وإنما يفتح إذا كثرت  
فيه الكلام الوحشي أو العامي .

وأما الخامس للتأليف به علة وكيدة ، لأن اعراب اللفظة تبع لتأليفها من  
الكلام وعلى حكم الموضع الذي وردهت فيه :

وأما السادس فتأليف به لعان بحسب إضافة الكلمة إلى غيرها ، فإن لفتح  
يختلف بحسب ذلك .

(١) سر القصاصة ص ١٠٧ .

وأما السابع فلا حلقة لتأليف به، إلا أن ظهور قبحه أجل إذا ترادفت فيه الكلمات الطوال

وأما الثامن فلا حلقة لتأليف به إذ كان لا يتعدى للكلمة بانفرادها .  
ودراسة ابن سنان لفصاحة من أنصبت للدراسات، ولا يكاد المتأخرون يخرجون عنها في كل ما ألفوا أو اختصروا أو شرحوا.  
عبد القاهر .

وكانت فصاحة والبلاغة والبراعة والبيان ألفاظاً مترادفة عند عبد القاهر الجرجاني ( - ٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ )، وكلها يهبر بها عن أفضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، وراموا أن يعلمهم مآل نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم (١).

والألفاظ عنده خدم للمعالي وأوعية لها تتبعها في حسنها وجمالها أو قبحها وردائها، يقول: «ولن نجد أئمن طائراً، وأحسن أولاً وآخرأ، وأهدى إلى الإحسان، وأجيب للاحتسان من أن ترسل للعالي على سجيبتها وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكسب إلا ما يليق بها، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها .  
فإذا أن تسع في نفسك أنه لا بد من أن تجتس أو تسجع بالمقنين مخصوصين فهو الذي أنت بهرض الاستكراه وعلى خطر من الخطأ والوقوع في اللوم. فإن ساعدك الجحد كما ساعد في قوله .

أودعاني أميت بما أودعاني

وكما ساعد أبا تمام في نحو قوله .  
وأجدتم من بعد اتهام داركم      فيما صنع أئمتني على ساكني نجد  
وقوله .

هنّ الحتام فإن كسرت عيافة      من حاتمهن لأنهن حيمام  
(١) دلائل الإيجاز ص ٣٥ .

لذلك وإلا أطلقت ألسنة العيب (١).

إنّ القصد من تكون في المعنى وليس للكلمة المفردة كبير قيمة، وكثيراً ما تستعمل اللفظة في موضع لتكون حلوة بالحرص عذبة، وتستعمل في موضع آخر تفقد تلك اللزجة، وإنما كان ذلك لأن اللزجة التي من أجلها تصعب اللفظ في شأننا هذا بأنه تصبح مزجة تحدث بعد أن لا تكون وتظهر في العلم من بعد أن يدخلها النظم. وهذا شيء إن أتت طلبته فيها وقد جثت بها إفراداً لم ترم لها لفظاً ولم تحدث لها تأليفاً طلبت محلاً. وإذا كان كذلك وجب أن تعلم تماماً أن تلك اللزجة في المعنى دون اللفظ (٢).

فالألفاظ عند عبد القاهر لا تتفاضل من حيث هي الألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كعلم مفردة، وإنما تثبت لها القضية وعلاقتها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها وما أشبه ذلك مما لا يتعلق له بصريح اللفظ. وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروك ولأنك في موضع ثم تراها بعينها تنقل عليك وتوحشك في موضع آخر كلفظ «الأخضر» في بيت الحماسة:

تلفت نحو الحلي حتى وجنتسي وجعت من الاصغاء ايئاً وأخذها (٣)  
ويت البحري :

والق وان بلتني شرف اللسني وأعظت من رق المطامع أخدعي  
لأن لها في هذين البيتين ما لا يخفى من الحسن، ثم أنك تتأملها في بيت أبي تمام:  
يادهر توّم من أخذ عينك فقد أضجبت هذا الانام من غررك  
فتجد لها من النقل على النفس ومن التنقيص والتكثير أضطاف ما وجدت هناك من الروح والخفة والايأس والبهجة.

(١) سرار البلاغة ص ١٩، وينظر دلائل الاصحاح ص ٤٠١.

(٢) دلائل الاصحاح ص ٣٠٧.

(٣) الامتحان : مرقان في جاني المتكلم غنياً ويطنا، والتي : صفحة المتكلم



ومن أعجب ذلك لفظة «الشيء» فأنك تراها مقبولة حسنة في موضع وضيفة مستكرهة في موضع، وإن اردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة: ومن مالي عيني من شيء غيبه إذا واح نحو الجعرة البيض كالدمى وإلى قول أبي حنيفة النخعي:

إذا ما ناقضى المرء يسوم<sup>١</sup> وليلة<sup>٢</sup> ففاض شيء لا يوصل<sup>٣</sup> الفاضيا  
فأنك تعرف حسنها ومكانها من القول، ثم انظر في بيت اللثبي:  
لولا تلك الدوار أهضفت سميه لبعوه شيء<sup>٤</sup> عن السدوران  
فأنك تراها نقل وتضوّل بحسب نيلها وحسنها فيما تقدم.

ومن سر هذا اليب أنك ترى الفظة المستكرهة قد استصيرت في عدة مواضع ثم ترى لها في بعض ذلك ملاحظة لا تجتبعها في الثاني، مثال ذلك أنك تنظر إلى لفظة «الجسر» في قول أبي تمام:

لا يطبع المرء أن يجتنب لجسه بالقبول ما لم يكن جسرا له للعمل  
وقوله:

يَصْرُفُ بِالرَّاحَةِ العَطشى فلم ترها تُنَالُ إِلَّا عِشْرَ مِنَ الدَّعْبِ  
فترى لها في الثاني حسنا لاتراه في الاول، ثم تنظر إليها في قول ربيعة الرقي:

قولي: نعم، ونعم إن قلت واجبة

قالت: عسى عسى جسرًا إلى تعمر

فترى لها لطفًا وعلاوة وحسنا ليس الفضل فيه بقليل.

ويتهي عبد القاهر إلى أن الكلمة لو كانت إذا حسنت من حيث هي لفظ وإذا استحقت الزينة والشرف، استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع انحرافها المتجاوزة لها في النظم لما اختلف بها الحال ولكانت أما ان تحسن أبدأ<sup>(١)</sup> أو لا تحسن أبدأ<sup>(٢)</sup>.

ولعل الغرض اللغوي كان دافعا إلى هذا الرأي، لأن كلمات القرآن الكريم عربية نطق بها الشعراء والمخطباء وتداولها الناس، وليس لها مزية وهي مفردة لا يفضحها

(١) دلائل الإعجاز ص ١٢٨ ١٢٦.

ملك بوحده بينها ويجمع مفرقها، ولكن يظهر عند القاهر إعجاز القرآن ويرد  
ما كان يشع في البيئات المختلفة اتجه إلى نظرية النظم ليد " بها المسالك ويفتدراها  
المختلفين ويوقف طمعات الحاقدين.

ولم يقف عند الاحتمام بالنظم وإنما اهتم بالتصوير الأدبي الذي لا يكون إلا  
بترتيب الالفاظ والتأليف بينها، يقول: «ومعلوم ان سبيل الكلام سبيل للتصوير  
والصياغة وان سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ  
فيه كالفضة والذهب يصاغ منهما عاتم أوسوار، فكما ان محالاً إذا اتت أردت  
تنظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل وروادته أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك  
الصورة أو الذهب الذي وقع فيه العمل وتلك الصنعة، كذلك محال إذا أردت  
أن تعرف مكان الفضل والثروة في الكلام أن تنظر في مجرد معناه. وكما اننا لو فضلنا  
خاتماً على خاتم بأن تكون فضة هذا أجود أو فضة أنفس لم يكن ذلك تفضيلاً  
من حيث هو خاتم، كذلك ينبغي إذا فضلنا بيتاً على بيت من أجل معناه أن لا يكون  
تفضيلاً له من حيث هو شعر وكلام» (١).

فبعد القاهر يرى أن للتصوير الأدبي قيمة كبيرة، ولذلك أطال الكلام في أسرار  
البلاغه على الوسائل التي تجعل الصورة حسنة مقبولة، وفصل القول في نظرية  
التنظم، وذهب إلى أبعد من ذلك ورأى أن في الاستعارة ما لم يمكن بيانه إلا بعد العلم  
بالتنظم والوقوف على حقيقته. يقول متحدثاً عن الاستعارة في بيت الشاعر:  
سألت عليه شعاباً المحي حين دعا أنصاره بوجه كالدلتايسر  
وقالت ترى هذه الاستعارة على لفظها وغرابتها إنما تم لها الحسن وانتهى إلى حيث  
انتهى بما توشح في وضع الكلام من التقديم والتأخير، ونجدتها قد ملحت ولطقت  
بمعاونة تلك ومؤازرته لها. وان شككت فاعصد إلى الجارين والظرف فأزل كلاً  
منها عن مكانه الذي وضعه للشاعر فيه قلل وسألت شعاب المحي بوجه كالدلتايسر  
عليه حين دعا أنصاره ثم انظر كيف يكون الحسنا وكيف يلهب الحسن

(١) دلائل الإعجاز ص ١٩٦.

والحلاوة وكيف لعدم إيهامك التي كانت وكيف تلعب النشوة التي كنت تجدتها (١).  
إن القصاحة عنده لا تكون إلا بوعي معاني النحو ، أي النظم ، والألفاظ لا تهيد  
حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ويعمد بها إلى وجه في التركيب . فلو أنك  
عمدت إلى بيت شعر أو فصل شر فعددت كلماته عدداً كيف جاء والفق وأهملت  
نقده ونظامه الذي عليه بني وفيه أروع ثلثي وأجري ، وغيرت ترتيبه الذي  
بخصوصه أفاد كما أفاد ، وبتسقة المخصوص أياك للراد نحو أن تقول في ولما نيك  
من ذكرى حبيب ومزله : منزل قفا ذكرى من نيك حبيب أخرجه من كمال  
البيان إلى حال الهليان ، وأسقطت نسبة من صاحبه ، وقطعت الرحم بينه وبين  
منشئه ، بل أحلت أن يكون له إضافة إلى قائل ونسب بخصم يتكلم (٢) :

واللهي إلى الحكم بالخطأ على من قصر القصاحة على الكلمات من حيث هي  
ألفاظ متفرقة وأصوات مسرعة ، والأديب لا يطلب النظم بحال ، وإنما يطلب المعنى  
فإذا غفر به فاللفظ معه وإزاء نظره ، ولذلك لم تكن القصاحة عنده من صفات  
المفردات من غير اعتبار التركيب .

إن عبد القاهر ربط بين القصاحة والنظم ولذلك لم يطل الكلام على شروط  
القصاحة كما فعل معاصره ابن سنان اللخاسي ، ولكنه مع ذلك لا ينكرها كل الإنكار ،  
وزراه يقول في خاتمة كتابه ودلائل الاعجاز : «واعلم أن لا تأني أن تكون مذاقة  
الحروف وسلامتها مما يطل على اللسان داخلها فيما يوجب القسيلة ، وأن تكون مما  
يؤكد أمر الاعجاز ، وإنما لذي نكره ونتميل رأي من يلعب إليه أن يجعله معجزاً به  
وحده ويجعله الأصل والعمدة فيخرج إلى ما ذكرت من شذاعات (٣) ، فهو لم ينكر  
قصاحة الألفاظ ونعمها ولكنه لم يرد أن يفسر الاعجاز بها ، ولذلك لم يفرسها كما

(١) دلائل الاعجاز ص ٧٨.

(٢) أسرار البلاغة ص ٨.

(٣) دلائل الاعجاز ص ٤٠١ ، فل - بتشديد الباء - رأه : فيه وضاعف .

فعل الآخرون ولم يُسَمَّنَ بها عبارة تظهر ميزتها وتأثيرها في الكلام (١) .  
السرلي .

عرف فخر الدين الرزقي (٨٦٠-٦٦٠هـ) الفصاحة بأنها وعلموس للكلام من التعقيد (٢)  
وهي - عنده - تتصل بالمشي ، لأن الإفادة اللفظية يستحيل تطرق الكمال  
والقصان إليها ، فإن السامع لفظ إما أن يكون علماً بكونه موضوعاً لسماء أو لا  
يكون . فإن كان علماً به عرف مفهوماً بتمامه ، وإن لم يكن علماً به لم يعرف منه شيئاً  
أصلاً .

وحصر البحوث المتعلقة بالدلالة اللفظية في امرين .

الأول : أن الفصاحة والبلاغة لا يجوز عودهما إلى الدلالة اللفظية .

الثاني : أن الفصاحة وإن كانت غير عائدة إلى الدلالة اللفظية ، لكن من الأمور  
العائدة إلى جوهر اللفظ وإلى دلالاته الوضعية ما يفيد الكلام كلاً وزينة وجمالاً (٣) .  
وهذه فكرة عبد القاهر التي بنى عليها نظريته في النظم ، ويرى بها الدين السبكي  
أن الرزقي يميل إلى أن الفصاحة راجعة إلى الالفاظ والمعاني (٤) .  
ابن الأثير :

وكان ضياء الدين بن الأثير (٨٦٣٧ - ) أوضح من السابقين تصوراً وفهماً  
لفصاحة ، وقد اهتم بها اهتماماً عظيماً وصحح كثيراً من الآراء في كتابيه والمثل  
الساير في ادب الكتاب والشاعر ، والجامع الكبير . يقول عن الفصاحة : «اعلم  
أن هذا باب متفرع على الواجب ومسلك متفرع على التامع ، ولم يزل العلماء من  
قديم الوقت وحديثه يكتفون القول فيه والبحث عنه ، ولم أجدهم من ذلك ما يعرفون

(١) ينظر الفصل الثالث «اللفظ والمعنى» في كتابه «مفيد القاهر المرصوف» - بلاغة وقده ص ٨٧ - ١١٨

(٢) نهاية الأجاز ص ٩ .

(٣) نهاية الأجاز ص ١١ .

(٤) حروف الاقوال - شرح المنهاج ج ١ ص ١٣٥ .